إذا عاد المساء ...

قصة جديدة بقلم محمد سعيد هاشم

– لكم هو طويل هذا الشارع يا اماه !

فأجابت الام على الفور بلهجة جافة قاطعة :

– سنصل ..

عند ذاك رفع الصبي رأسه الصغير وحدّق في وجه امه مستفسراً وهو يلهث من التعب إذ كان يتابع خطوات امه الكبيرة بخطواته الصغيرة السريعة فيبدو كالراكض . ولم يستطع حبس الكلمات التي تجمعت في رأسه ، وقال بصوت مرتجف كمن يتوقع شراً مستطيراً :

– أين ؟

التفتت اليه امه وزمت شفتيها بقوة ، ورأى الصبي عينيها تلمعان ودموعاً تترقرق فيها . فنظر اليها منتظراً الجواب ، لكنها لم تحر جواباً ، وإنما عادت تنظر إلى الامام في الدرب الطويل ، وشعر الصبي بقبضة امه الكبيرة تشد على يده بقوة اكثر من ذي قبل ،وها هي تزداد قوة حتى أخذ يشعر بخدر يسري في كفه الصغيرة ، فود لو ينبه أمه إلى ذلك لكنه خاف من عينيها الدامعتين فصمت . وتابعا السير في ذلك الشارع الهادىء . كان الصبي يتمنى لو تكلمه امه وتطيل التحدث اليه ، لو تقص عليه بعض القصص كما كانت تفعل من قبل ؛ لكنها بدت في هذه الليلة جامدة لا تنطق بكلمة ولا تفكر في الصبي أبداً بل في أشياء اخرى . وإلا لِمَ لا تكلمه عن العفاريت ؟ أو على الاقل تخبره إلى أي محل يسيران ؟! وتذكر ليلة أمس التي قضياها قرب الجامع القديم ، وقد افترشا الرصيف العام . كان الصبي في أول الليل فرحاً وقد نام عن كثب من أمه لا يأتي بأية حركة ، لكن ما إن قرب الفجر حتى أصبح الجو قارساً لا يحتمل ، فسرت في جسده رعدة باردة ،وودّ لو يتغطى بشيء دافىء ، لحاف مثلاً ، أو بطانية صوف سوداء ، أو حتى حائط الجامع هذا ، فدسّ جسمه الصغير بين يدي امه التي استيقظت في الحال فزعة وزعقت بوجهه ثم استوت قائمة .

لمح الصبي الجامع القديم ، فهمس في نفسه « لا بد أننا سنقف هنا كالبارحة » لكن الام لم تتوقف وإنما سارت إلى الامام تسحبه بيدها الغليظة . ونفد صبر الصبي فقال بصوت متقطع :

– هذا .. الجامع .. ماما ..

ولئن كان في اقصوصة « اديب » حكاية ، فهي فارغة من اي محتوى فكري : حكاية اديب اعمى مشهور اتخذه احد الملوك مستشاراً له ؛ ولكن زوجة الملك كانت تتردد عليه لتراقبه في عمله مما جعل الالسنة تنالها بالسوء . وشاء الملك ان ينتقم منها فأمر بان « تعير امرأته المتهمة احدى عينيها للأعمى الذي شك في إخلاصه ، فسلبها بذلك ضياء الجمال ، وأفقده نور العقل ، وكتب اسمه في لوحة الخالدين من الظالمين ! » . وليس لـ « عودة الغائبة » فكرة واضحة ، وأما « زارع الاكي دنيا » فحكاية تاريخية للأطفال .

وهذه الأقاصيص جميعاً لا تمثل ، بعد ذلك ، أية قيمة فنية ؛ فهي لا تخلق مثلاً اي «جو نفسي» خاص ، ولا تحلل أية شخصية هامة ، ولا تصور نماذج بشرية متميزة ؛ ومما يزيد في إضعافها فنياً ارتفاع لهجة العظة والدرس ، هذه اللهجة التي لا تستنتج من حادثة أو سياق او قرينة ، وإنما تسمع في الحوار .

وهكذا يبدو للقارىء جلياً ان المجموعة تتألف من اقاصيص سطحية تافهة ذات حبكة هزيلة . وهي كما قلنا ربما كانت تسلي ولكنها لا تعلّم شيئاً ولا تثير شعوراً إنسانياً ولا تهزّ إحساساً فنياً . إنها ترود السطح ولا تسبر الغور . وإذا صورت جانباً من واقع ، كانت وثيقة باردة لا تستشرف المستقبل وليس فيها اي نزوع خلاق . ونحسب ان المؤلف لا يكتب عن «ضرورة» أو عن «حاجة» لا بدّ له أن يستجيب لها ، وإنما يكتب عن رغبة في التسلية ليس غير ؛ وهذا هو الشعور الذي يبعثه لدى القارىء وقد شعرنا بمثله في « خطيئة الشيخ » و « الحاج مجبج » .

بقيت لغة المؤلف ، وهي دون ريب لغة جميلة سلسة صافية . ولكن ما عساها تكون قيمة وسيلة التعبير في أثرٍ لا قيمة فنية له ؟

سهيل ادريس

حملقت الام فيه طويلاً وقالت وكأنها لم تسمع تنبيه ابنها :

— ملابسك قذرة جداً .. هه ؟

— « ملابسي قذرة جداً ! ما بالها تسألني عن ملابسي لأول مرّة ؟ » وسار الصبي تملأ رأسه افكار كثيرة : ملابسه قذرة.. كل يوم ملابسه قذرة.. لمَ تسأله اليوم ولاول مرة؟ وشعر بابتسامة خفية تريد الخروج إلى شفتيه . ربما ستبتاع له امه ثوباً جديداً . لا بد انها حصّلت نقوداً كثيرة في هذا اليوم .. نعم.. نعم لا بد من ذلك.. وتذكر الرجل الانيق الذي يرتدي بذلة جميلة، ما أرقه، وقد أخذ يكلم أمه ملياً وهو يرمقها بنظرات طويلة ثم دس بيدها قطعة نقود كبيرة ومضى .. وأراد الصبي أن يرى القطعة فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، لان امه دستها من فورها في جيبها وأنبّته على تطلعه.. وأخذت أنفاسه تتردد بسرعة فائقة ، وشعر بشيء حاد يخزه في جنبه الايسر كالمسمار، ويقطع أنفاسه بمنع دخول الهواء إلى صدره الضيق فتمتم لاهثاً بخفوت وهو يتنفس بمشقة :

— اماه ..

لكنها لم تعره اي اهتمام ورددت بقسوة :

— سنصل ..

« الى اين يا إلهي ؟ الى اين ؟ » كان هذا ما يتردد في نفس الصبي كالصدى الصاخب الذي يريد الخروج من ممر ضيق طويل ..

وفجأة سحبته امه الى باب بيت كبير ، فظن انهما سيبيتان هنا امام هذا البيت ، وسرعان ما خلص يده من قبضة امه واستلقى على الرصيف متوسداً يديه الصغيرتين ، لكن امه مضت قدماً نحو الباب الخشبي المزخرف واخذت تضغط زراً كهربائياً ، تماماً مثلما تفعل في النهار .. أيمكن ذلك ؟. هل سيعطونها خبزاً او نقوداً كما يفعلون في النهار ؟ حتما انهم سيطردونها بعنف ، فصاح مرتاعاً بصوت مرتجف :

— ماما ..

— إش .. اعمى العين .

فذهل الصبي لهذا الجواب ، لا بد ان في الامر سراً لا يعرفه او لا يفهمه .. ولبث جامداً في محله كالتمثال ، ينظر الى امه منتظراً بلهفة ما سيحدث بعد لحظات .. فتح الباب واطلّ منه رأس تلمع فيه عينان هما نفس العينين اللتين كانتا قبل ساعات تتفحصان امه بشغف . هو نفس الشخص الذي اعطى امه قطعة كبيرة من النقود .. ما أطيبه .. انه سيعطيها قطعة اخرى كبيرة ايضاً . ورأى امه تدخل دون ان يأذن لها بالدخول .. كيف تجسر ؟ وهل تتركه هنا وحيداً تنهشه الكلاب والعفاريت ؟ حتماً سيبكي ويصيح ، يجب ان يدخل مع امه . كيف تتركه في هذا الظلام المخيف .. وقبل ان تطفر الدموع من عينيه سمع صوتاً اجش يصيح به :

— تعال ادخل هنا ونم على هذه الدكة قرب الباب الداخلي وستخرج امك عما قريب ..

حينذاك اطمأن الصبي فدلف الى البيت والقى بجسده المنهوك على الدكة وسرعان ما دب النوم الى جفنيه ..

وعند الفجر استيقظ الفتى مرتجفاً من شدة البرد ، فنظر حواليه فلم يع ما رأى .. حديقة وورود جميلة ودكة كبيرة تلمع كالمرآة .. وتذكر امه .. اين هي ؟. ودون وعي منه اجهش للبكاء واخذ صوته بالارتفاع تدريجياً . اذ ذاك فتحت امه الباب خلفه وصاحت به ان اصمت.. فصمت مذعناً والنشيج يتردد من آن لآن بحركة لا ارادية وهو يحاول جهده حبس آخر شهقاته .. وبدت الام مرتاعة تحدق فيما حولها بذهول ثم أمسكت يده الصغيرة بقبضتها القوية وشدت عليها وسارا نحو السوق .

هناك اخذا يجوبان الشوارع والازقة ، يطرقان الابواب ويمدان ايديهما الى المارة ، وعند الظهيرة جلسا يأكلان ما تجمع لديهما .. كان الصبي يأكل بنهم ظاهر بكلتا يديه ويحك رأسه وجسده فيبدو اشبه بكتلة طين قذرة . وملأ فمه بلقمة كبيرة هي خليط الوان عدة من الطعام ثم سأل امه بصوت يشبه الحشرجة وقد اخذ الرذاذ يتطاير من فمه الممتلىء :

— اماه .. اين نذهب .. إذا عاد المساء ؟

البصرة — **محمد سعيد هاشم**

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير — بيروت

اكبر مجموعة من الكتب العربية والفرنسية من ادبية وسياسية واجتماعية.

تليفون ٧٧ — ١٦